صاحبة الخطيئة

هل للشرف معركة خاصة يخوضها في صمت، أم أنه يقاتل في ساحات لا يراها إلا من يحمل ثقله؟

نبذة عن الرواية

(طب الأنبار، كلمتان فقط كانتا كفيلتين بقلب حياة نوارس رأسًا على عقب. تلك كانت الصدمة الثانية لها هذا العام، وربما لن تكون الأخيرة. لم تكد تتعافَ من صدمة معدّلها في الصف السادس، حينما كانت تحلم بالحصول على الـ 100، لكن فارق الدرجتين كان كفيلًا بتحطيم آمالها.

والد نوارس كان يسعى بكل طاقته لتحقيق أحلام بناته، كان كل شيء يبدو مثاليًا، إلا أن نوارس كانت دائمًا مصدر المتاعب. هذه هي سنتها الرابعة في الصف السادس الإعدادي، ففي كل مرة تخيب آمالها مع عدم تجاوز معدّلها التسعين.

كانت تطمح لدخول كلية الطب في جامعة بغداد، لكن هذا الحلم تحوّل إلى كابوس لأهلها. والدها، الذي يعيش على وقع ثأر قديم مع إحدى العشائر في الأنبار، لا يمكن أن يسمح لها بالذهاب إلى هناك. إنها حرب قديمة وضغائن عميقة، لا تمحوها السنين، فكيف سيرسلها بعيدًا إلى قلب الأنبار؟)

طب الأنبار

كلمتان فقط كانتا كافيتين لتغيير حياة الطالبة نوارس جذريًا. كانت هذه الصدمة الثانية لها في هذا العام، وربما لن تكون الأخيرة. لم تتعافَ بالكامل بعد من أثر معدّلها في الصف السادس، حيث توقعت أن يكون معدّلها 100، لكن الدرجة أو الدرجتين فرق كبير.

عائلة نوارس المكونة من والدها ووالدتها وأختين متزوجتين، كانوا في صدمة كبيرة. بقوا صامتين، ووالدها خصوصًا لم يبدِ أي ردة فعل، بينما والدتها لم تستطع كبح دموعها. أما نوارس، فقد حبست نفسها في غرفتها، عادت لتعيد نفس الحزن على قبولها المركزي، كما فعلت عندما بكت على معدّلها. لقد تعبت كثيرًا.

كانت تأمل أن تقبل في طب البصرة، مثل أختها نور، حيث لن يعترض والدها وسيوافق فورًا لأن أخوال نوارس يعيشون هناك. وهذا ما أدى إلى زواج نور من ابن خالها، مما جعل والد نوارس مرتاح البال. الآن، نور دكتورة تعمل في إحدى مستشفيات البصرة الأهلية. أما أختها الكبرى، سارة، فقد كان حلمها مختلفًا، حيث رغبت في دراسة الهندسة. سافر والدها معها إلى الخارج مع عمها وجدها، وأكملت دراستها هناك، وعادت متزوجة من ابن عمها مهندس معروف وتعمل معه.

لقد بذل والد نوارس جهدًا كبيرًا في سبيل تحقيق أحلام بناته. كل شيء كان مثاليًا، إلا أن نوارس دائمًا ما كانت تجلب له المشاكل. هذه السنة الرابعة لها في الصف السادس الإعدادي، ففي السنوات السابقة لم يتجاوز معدّلها التسعين.

كان حلم نوارس أن تقبل في جامعة بغداد لدراسة الطب العام، لكن ما جلب الهم والغم لأهلها هو أن والدها لديه ثأر مع إحدى العشائر في الأنبار. إنه ثأر قديم وحقد كبير لن يمحوه الزمن. كيف سيوافق والدها على إرسالها من بغداد إلى الأنبار؟

على مدار أربع سنوات متتالية، أعادت نوارس دراسة الصف السادس الإعدادي، تسعى جاهدة لإرضاء والدها وجعل والدتها تفخر بها، وحتى لتحظى برضا المجتمع بأسره، بل حتى الكون والكواكب والحيوانات إذا أمكن. كانت تعتقد أن حصولها على شهادة الطب قد يكون المفتاح لرضا الجميع، لكنها رغم ذلك، كانت تشعر أن رضا والدها يظل بعيد المنال.

منذ طفولتها، كان والد نوارس ينظر إليها على أنها الفتاة المسببة للمشاكل، على عكس شقيقتيها نور وسارة. نوارس، الابنة الصغرى، كانت بمثابة الابن الذي لم يرزق به والدها. كانت دائماً تثير المتاعب في الحي من خلال تشاجرها مع الصبية. ومع مرور السنوات، تزايد عنادها وشقاوتها، وازداد معها تمردها ورفضها لأمور كثيرة لم تكن شقيقتاها تجرؤان على الاعتراض عليها.

أحد هذه الأمور كان الزواج؛ فلم تعترض نور على الزواج من ابن خالها الذي اختاره والدها لها، ولا حتى سارة. قالت نوارس إن شقيقتيها انخدعتا بفكرة الحب وقبلتا بتدخل والدهن في حياتهن. أما نوارس، فكان الوضع معها مختلفاً تماماً، فلم ترغب في دراسة الطب منذ البداية، وكانت مصممة على التمرد ضد قرارات والدها وخططه لحياتها.

لكن ما دفعها إلى ذلك الحلم الوهمي هو رفضها الدائم لضغوط والديها وإصرارهما على تزويجها من أبناء عمومتها. حتى أنها اضطرت للخطوبة، إلا أنها انفصلت عن خطيبها بعد ثلاثة أيام فقط، مما أدى إلى نزاع بينها وبين والدها استمر لشهور. ولإرضاء والديها، قررت أن تجتهد في دراستها لعلها تُقبل في كلية الطب، على أمل أن يتوقفا عن لومها ومقارنتها بأختيها، ولكن اللوم لم يتوقف أبدًا. حتى بعد قبولها في كلية الطب بمحافظة الأنبار، تضاعفت همومها وازداد استياء والديها منها.

والدتها كانت تلومها ليلًا ونهارًا، وتذكرها باستمرار بأنها لم تتزوج ابن عمها ولم تُنجب أطفالًا في هذا العمر، معبرة عن خوفها من أن تتأخر في الزواج وتدخل في ما تسميه "سن العنوسة"، وهو ما لم تعترف به نوارس أبدًا. كانت نوارس تخفي مشاعرها تجاه هذا التفكير الذي تحمله والدتها، في حين أن والدها كان كمن أطبقت السماء والأرض على قلبه، يبقى صامتًا ومهمومًا. ووالدتها تذرف الدموع باستمرار، دون أن تفهم نوارس سبب بكائها.

ولم تتوقف نور وسارة، أختاها، عن إلقاء اللوم عليها، معتبرين أنها السبب في تعاسة العائلة. ورغم كل تلك الاتهامات، كانت نوارس تواجهها بوجه صلب، لكنها كانت تنفجر بالبكاء في صمتٍ ووحدةٍ داخل غرفتها.

بعدما أدركت نوارس السبب الحقيقي وراء رفض والدها لسفرها، اكتشفت أنه يعود إلى خلاف قديم بين عائلتهم وأهل الأنبار، وهو خلاف قديم لا تعيره نوارس اهتماماً، معتبرة إياه تقاليد بالية لا تستحق الالتفات. ومع ذلك، وبعد نقاشات ومفاوضات طويلة، وافق والدها على أن تسافر للدراسة هناك، لكن ليس دون شروط صارمة وتحذيرات مقلقة، إذ منعها من الاختلاط أو مغادرة المسكن الذي وفره لها مع بعض الطالبات من محافظات أخرى.

كان والد نوارس قد باح بكل شيء، لكن دموع زوجته تركت في قلبه غصة، وهو يشعر بثقل القرار الذي اتخذه. ابنته الصغيرة، المدللة والمتهورة في نظره، كانت تمثل له تحدياً كبيراً. فقد أفسدها، كما يقول عنه الأقارب والأصدقاء. لم يكن سهلاً عليه أن يسمح لها بالابتعاد، وخاصة أن وجهتها كانت أرضاً يعتبرها موطن خصومه. قضى تلك الليلة يفكر بقلق ودموعه تسقط للمرة الأولى، فهو لم يشعر بالخوف أو الحزن عندما سافرت ابنته الكبرى سارة للعمل خارج العراق، ولا حين تزوجت نور وابتعدت عنه الى البصرة. لكن نوارس كانت الأقرب إلى قلبه، الابنة التي أحبها بعمق وأغرقها في دلاله منذ نعومة أظفارها. ومع أنها كبرت وتغيرت معاملته لها لتصبح أكثر صرامة، إلا أن حبها لم يفتر يوماً.

في تلك الليلة الأخيرة قبل رحيلها، دخل والد نوارس إلى غرفتها، مسح على شعرها برفق، وقبل أن يدرك الأمر، سالت دمعته على خدها. قبّل جبينها ويديها بحنان، وهو يعلم أنها لن تشعر بحزنه الدفين. ظل يراقبها وهي نائمة، يراها طفلة مهما كبرت. كانت تلك الليلة من أصعب ليالي حياته.

وفي صباح اليوم التالي، رافقها إلى الطريق، ينصحها مرة تلو الأخرى، يكرر عليها ألف مرة ألا تختلط بأحد، وكأن تلك النصائح كانت آخر خيوط الأمان التي يمكنه تقديمها لها.

المجهول

عندما وطأت قدماها أرض الأنبار، شعرت بانقباضة غريبة في قلبها. كان أحد حراس الحدود قد أمرها بارتداء الحجاب وتغطية رأسها. لمحت نظرة حادة من والدها، الذي أصر على أن يوصلها بنفسه، ويشرف على إتمام كافة الإجراءات، ليطمئن على سلامتها قبل أن يعود إلى بغداد.

كانت قد تلقت منه تحذيرًا صريحًا بعدم ترك شعرها مكشوفًا، لكنها رفضت الانصياع في البداية، فقد كانت متحمسة ليومها الأول، وذهبت إلى الصالون لتصفيف شعرها تسريحة خاصة. إلا أن الحجاب الذي وضعتُه بلا اهتمام أفسد تلك التسريحة، وبدأ شعور بعدم الراحة يتسلل إليها بينما كانت تخطو داخل الأنبار.

أنهى والدها كل ما يلزم وغادر عائدًا إلى عمله، بعد أن تركها في سكن للطالبات في حي قريب من الجامعة، ولحسن الحظ كان يعرف بعض أهالي الحي، فقد كانوا من أصدقائه. شعرت نوارس ببعض الطمأنينة، لكنها لم تنس كلمات اختها نور التي وصفت الأنبار بأنها مجرد صحراء قاحلة، لا يوجد فيها ما يسر العين أو يسعد النفس، وأنها لن تجد مكانًا تستمتع فيه على أي حال.

في اليوم الأول لها هناك، شعرت بالغربة الشديدة، رغم كرم ضيافة زوجة صديق والدها التي بقيت معها. لكن هذا الإحباط لم يدم طويلًا، ففي اليوم الثاني، قررت أن تستكشف بنفسها جمال الأنبار، بعيدًا عن أنظار والدها الذي كان قد حذرها مسبقًا من مغادرة السكن دون إذنه.

ورغم أن والدها قد اتخذ احتياطاته، فقد أوكل إلى أحد أصدقائه مهمة مراقبتها سرًا. وبينما وصلته الأخبار عن تحركاتها، اختار ألا يتصل بها حتى لا يشعرها بأنه يتعقب خطواتها. اطمأن حين علم أنها بصحبة صديقاتها.

لم تكن نوارس تشبه الفتيات الأخريات في السكن؛ فهي الوحيدة القادمة من بغداد، بينما كانت رفيقتها الأخرى من البصرة، والبقية من مناطق بعيدة في الأنبار.لأن الأنبار كانت أكبر محافظات العراق، دهشت نوارس كثيرًا من العادات المحافظة التي سادت المجتمع هناك. شعرت بغصة داخلها، مستذكرة أن هذه البيئة تشبه كثيرًا تفكير والدها، الذي رغم التزامه، لم يُجبرها على ارتداء الحجاب، ولم يكن ينتقد ملابسها إلا إذا كانت جريئة أو غير مناسبة.

في يومها الأول بكلية الطب، لاحظت نوارس وجودًا مكثفًا للشرطة والضباط، مما زاد من توترها الطبيعي كأي طالبة جديدة في هذا العالم الجامعي المجهول. زادت حدة قلقها عندما أوقفوها عند بوابة التفتيش وانتقدوا فستانها القصير وحجابها الذي لم يغطِّ شعرها بالكامل، محذرين إياها من ارتداء مثل هذه الملابس مرة أخرى.

لم تستطع نوارس استيعاب هذا الموقف بسهولة، خاصة أن جميع ملابسها كانت من هذا النمط. هي لم تكن محجبة بالكامل، فلماذا يُطلب منها الآن أن تغطي شعرها؟ في تلك الأثناء، كان عميد الكلية مشغولًا بالنقاش مع الضباط حول مسائل تخص الأمن الوطني، بسبب تهديدات إرهابية في المنطقة وخوفهم على سلامة الطلاب.

بينما كانت المفتشات يتجادلن مع نوارس، التفت أحد الضباط، محمود، نحوها ولاحظ اختلافها عن باقي الطالبات. ومن خلال الحوار الدائر بصوت خافت، أدرك أن مشكلتها تكمن في ملابسها غير التقليدية. بحدسه السريع، عرف أن هذه الطالبة ليست من الأنبار.

وفي لحظة مشوبة بالتوتر، التقت عيناه بعينيها. شعرت نوارس وكأن العالم قد توقف لوهلة. عيناه السوداوان الحادتان، تحت حواجب كثيفة وملامح صارمة، التقيا بنظرة بريئة من عيون نوارس العسلية. وعلى الرغم من أن قلبها كان يضرب بعنف داخل صدرها، فإن هدوءه وثقته أزال عنها بعض التوتر.

كانت تلك اللحظة أشبه بلقاء من زمن بعيد، وكأن الأساطير التي قرأتها عن لقاءات الحب القدري قد تجسدت أمامها. ابتسمت له بخجل، فبادلها الابتسامة وتقدم نحوها بخطوات ثابتة، وكأنهما تعاهدا على استعادة شيء ضائع عبر الزمن.

حاولت بسرعة تدارك الموقف واعتذرت من المفتشات اللاتي كن ينظرن بإعجاب نحو الضابط محمود، فأصلحت الحجاب على رأسها وبدأت تتحدث بأدب ورقة معهن، مما أثار دهشتهن من التحول المفاجئ في تصرفات الطالبة. هذا الموقف أضحك محمود الذي كان يراقب دخولها إلى الكلية وكأنها محاربة، ترتدي فستانًا أبيض مزخرفًا بالفراشات الوردية يصل إلى منتصف ساقيها، وشالًا شفافًا بنفس اللون. تابع خطواتها السريعة والمتوترة بابتسامة خفيفة.

ومع بداية العام الدراسي، بدأت تواجه صعوبات كبيرة في دراستها. حيث كان والدها دائم التحذير من الاختلاط. مع ذلك، ركزت على دراستها الصعبة ولم تسمح لنفسها بالتعرف على أي شخص جديد، وأصبحت منعزلة، لا تحتك سوى بصديقاتها اللواتي يشاركنها السكن. وكانت تحافظ على تواصل يومي مع أسرتها.

حب الأساطير

محمود غرق في دوامة من الأفكار حول نوارس، مستغربًا من هذا الشوق الذي يلتهمه نحوها رغم أنه لم يلتقِ بها سوى مرة واحدة. كان يحاول إقناع نفسه بأن الأمر مجرد وهم، ولكن مشاعره كانت أقوى من أي منطق أو عقل. وبعد أيام من العطلة لم يستطع تجاهلها أكثر، فقرر في لحظة من ضعف قلبه أن يتوجه إلى الجامعة يوم خروجها، آملاً أن يتتبع خطواتها ليكتشف أين تسكن.

من ناحية أخرى، كانت نوارس تتأمل الضابط الذي رأته مرة واحدة فقط، وتدور في ذهنها أسئلة حول ما إذا كانت ستلتقي به مجددًا أم لا. شعرت بالإحباط ووجدت نفسها منغمسة في الدراسة بجدية متواصلة. بعد أن أنهت امتحاناتها بصعوبة، قررت أن تستغل عطلتها الربيعية القصيرة، التي امتدت لأسبوع واحد، في الغوص في عالم الأساطير القديمة، وخاصة أساطير الحب.

بينما كانت تلتهم الكتب بشغف، اكتشفت مفهوم التخاطر وقررت أن تجرب هذا الفن الغامض. في اليوم التالي، وبصحبة صديقاتها، ذهبت إلى أحد المقاهي، حيث كان محمود يراقب منزلها من بعيد. في صدفة رائعة، خرجت نوارس مع صديقاتها، وتابعها محمود من مسافة. وعندما التقت نظراتهما، تبادلا ابتسامة مليئة بالشغف .

دگة عشائرية

بعد انتهاء عطلة الربيع، عادت إلى دوامها، لكن فكرها به لم يفارق ذهنها، فهو دائم الحضور في خيالها. رؤيته وهو يقف بسيارته بالقرب من كليتها أكدت لها أنه يهتم لأمرها ويحاول أن يظل في الخلفية، غير قادر على إظهار مشاعره. لم تكن تدري كيف تتصرف، وهو لم يكن يعرف كيف يعترف لها بإعجابه الشديد بها، وتفكيره فيها باستمرار. كل مرة تراه فيها كانت تصادف ابتسامة مشتركة، لكن الكلمات بينهما لم تُنطق بعد.

محمود، الذي لم يفكر يوماً بالزواج، رغم الضغوط المستمرة من والديه، كان يتحجج بصعوبة عمله وخطورته، مما يجعله غير قادر على الزواج حالياً. لكن فكرة الزواج التي كان ينفر منها أصبحت تطارده بشكل مستمر، وكلما تذكرها، ازداد إدراكه لأهمية هذه الخطوة. لم يستطع محمود حصر شغفه بنوارس، حتى أن والديه لاحظا شروده الدائم، ما جعلهم يشعرون بالقلق. والده حاول طمأنة نفسه بأنه سيمل من هذه الفتاة كما في علاقاته السابقة، لكن والدته كانت تشك في ذلك، لأن محمود كان شارد التفكير بطريقة غير معتادة، مما جعلها تشعر بأن هذه الفتاة قد تكون مختلفة.

بينما كان محمود غارقاً في أفكاره عن الفتاة التي أسرت قلبه دون أن يعترف لها، جاءه اتصال عاجل بسبب نزاع عشائري قريب من الجامعة التي تدرس بها نوارس. هذا النزاع أثار الرعب بين الأطفال والنساء، وزرع الخوف في أرجاء المنطقة بأسلحة المشاجرة.

العاشق

بينما كان الارتباك يعم المكان، وجد السائق المسؤول عن نقل نوارس وصديقاتها نفسه عالقًا في وسط الطريق، غير قادر على التقدم أو العودة. الفوضى المحيطة كانت تعمق الذعر في قلوب الفتيات، والأصوات الصاخبة والهمجية حولهن كانت تزيد من حدة الرعب. بينما كانت صرخات الصديقات تملأ الأجواء، حاولت نوارس بجهد إخفاء خوفها ودموعها، لكن فجأة، تحطمت زجاج السيارة بالكامل، وجرح ذراعها، حيث كانت تجلس بجانب السائق، مما جعلها تنهار بالبكاء من شدة الألم ومنظر الدماء.

في خضم الفوضى العارمة، وجد السائق نفسه غارقًا في حيرة عميقة، حيث كانت قطع الزجاج تتناثر على ذراع نوارس، مما جعل قلبه يرتجف. قرر أن ينقذ ما يمكن إنقاذه، فخرج هو والفتيات وحاول ان يستأجر سيارة أجرة. ولكن عندما نزلت نوارس من السيارة، فقدت وعيها وسقطت على الأرض، لم تستطع سوى سماع صرخات صديقاتها وصوت الطلقات النارية المدوية. في هذه الأثناء، كان محمود، الذي كان يبحث عن نوارس في الجامعة، قد وصل إلى قلب المعركة. تجشم المخاطر وركض نحو السيارة، وعندما وجد نوارس ملقاة على الأرض، حملها بين ذراعيه. طلب من السائق أن ينقل الطالبات إلى بيوتهن، بينما هو سيتولى أمر نوارس بعد أن نجح الأمن في السيطرة على الهمجية التي سببها المسلحون في تلك الاشتباكات العشائرية.

رفض السائق عرض محمود بمرارة، وهو يتخيل كيف سيرد والد نوارس المتشدد لو علم بما حدث. بينما كان محمود يتشاور مع الضابط، طلب من أحد أصدقائه أن يرافق البنات إلى منازلهن، ثم توجه هو والسائق، الذي كان في أواخر الأربعينات، إلى المستشفى. اتصل السائق بوالد نوارس ليطلعه على الوضع.

بينما كان محمود يحمل نوارس بين ذراعيه، كانت بشرتها شاحبة وذراعها مغطاة بالدماء، وكان السائق يرتجف من الخوف. أما قلب محمود، فكان مضطرباً بشكل لم يكن يتوقعه، غير مصدق أن هذه الفتاة، التي كانت دائماً مبتسمة ومشرقة بين صديقاتها، تتحول الآن إلى ضحية تنزف دماء.

صارت المسافة إلى أقرب مستشفى من الجامعة في نظر محمود أبعد من أي وقت مضى، وكأن الزمن قد توقف وأصبح دهرًا، كل لحظة فيها تسير ببطء مهيب.

مرّت الساعات ببطء كأنها الأبدية، وكان والد نوارس يتنقل كالمجنون بين ممرات المستشفى، يسابق الزمن والألم، دون أن يجرؤ على إخبار أحد، حتى زوجته. التقى بالسائق الذي استقبله بالبكاء والاعتذارات.

داخل الغرفة، كان محمود يراقب نوارس بعينين مليئتين بالقلق، منتظرًا لحظة استيقاظها. وعندما فتحت نوارس عينيها ورأته، انفجرت في بكاء مرير وسألت: "أين أبي؟"

في تلك اللحظة، دخل والدها، ودفعت مشاعر البكاء نوارس إلى أحضان والدها، حيث استسلمت للدموع.

بعد أن هدأت نوارس، هم محمود بالرحيل، لكن والدها استوقفه، وعبر له عن شكره العميق. نظر محمود إلى نوارس نظرة أخيرة قبل أن يغادر، كأنما ترك جزءًا من قلبه في تلك الغرفة.

الشعب

ظل محمود يراقب عن كثب وهو يتأمل مغادرة نوارس من المستشفى. سمع والدها وهو يتحدث بنبرة حادة وحازمة إلى السائق، مؤكدًا أنه سيغطي كل التكاليف اللازمة لنقل ابنته إلى أي كلية في بغداد، وأنه على استعداد لدفع مبلغ كبير لضمان بقاء ابنته في محيطه وقرب نظره. بعد هذا، قرر والدها أن يأخذ نوارس إجازة من الجامعة وينقلها إلى بغداد لتستريح، ثم سيبدأ في إجراءات النقل اللازمة. شعر محمود بالحزن والانزعاج من هذه التصريحات.

في مسكن الطالبات، حيث كانت نوارس تحاول تحريك ذراعها المتألمة ببطء لتجمع أغراضها، تولت صديقاتها مساعدتها. فتحت حقيبتها الصغيرة التي كانت ملأى ببقع دمها، وبدأت في إخراج محتوياتها. لكنها فوجئت برسالة في حقيبتها من محمود، كتب فيها: "نحن في خدمة الشعب وأهل الشعب، وهذا رقمي إن احتجت إليّ."

تملكت نوارس مشاعر مختلطة من الخجل والفرح وهي تتأمل الرسالة، قبل أن يدخل والدها ويطلب منها الاستعجال للذهاب إلى بغداد. أخفت الورقة بسرعة، متجاهلة الألم في ذراعها الذي بدأ يتعافى. طوال الطريق إلى بغداد، لم تفارق الابتسامة وجهها، بينما تستمع للسائق وهو يثني على الضابط أمام والدها، الذي بدا معجبًا بشهامته. بقيت نوارس مترددة: هل تتصل بالضابط الذي لا تعرف اسمه، أم تترك الأمور كما هي؟

في خضم الفوضى التي كانت تحيط بها، شعرت نوارس وكأنها في عالم آخر، حيث كان ذهنها يرحل بعيداً إلى عالم الأساطير القديمة التي تتحدث عن الحب الساحر. كان والدها قد فقد الأمل في مسألة نقلها وكان في قمة القلق، لكن نوارس اتخذت قرارها، وأقدمت على الاتصال بمحمود. كانت رسالتها الأولى مليئة بالامتنان: "شكراً سيدي، تعبناك ويانا."

تملّكه فرح عميق، وأسرع إلى غرفته، غير قادر على تصديق أنها تواصلت معه. سجل اسمها في هاتفه تحت اسم "الشعب"، وأجابها قائلاً: "العفو دكتورة." وأضاف بلهجة مفعمة بالاهتمام: "أتمنى أن تكون ذراعك قد شفيت تماماً وأن تكون حالتك النفسية قد تحسنت في بغداد."

تفاجأت نوارس وسألته بفضول: "شكراً لسؤالك، ولكن كيف عرفت أنني في بغداد؟" أجاب محمود بثقة وهدوء: "لقد علمت."

سجلت نوارس اسمه في هاتفها تحت اسم "سيدي الضابط"، ووجدت نفسها تهتز فرحاً كما لو كانت فراشة تنعم بأشعة الشمس، تأثراً بالكلمات الطيبة التي تبادلاها.

السر

بعد هذا الاتصال الأول، تتابعت المكالمات بين محمود ونوارس، وكشف محمود تدريجياً عن إعجابه الكبير بنوارس، معبراً عن قلقه من احتمال نقل والدها لها إلى بغداد للدراسة. طمأنته نوارس بصعوبة النقل بين الكليات في هذه المرحلة، مما جعل محمود يشعر بالراحة. ومع انتهاء إجازة نوارس في بغداد وعودتها إلى كليتها في الأنبار، كان محمود يشعر بالسعادة لرؤيتها مليئة بالطاقة والنشاط، وسحر جمالها وجاذبيتها كان يزداد يوماً بعد يوم.

أصبح لقاؤهما السري في المقاهي القريبة من الجامعة، ولكن محمود لم يرغب في الاستمرار في العلاقة دون رابط رسمي، وكانت نيته صافية تماماً. عندما أعرب محمود عن رغبته في الزواج منها، تفاجأت نوارس بشدة، حيث كانت تشرب قهوتها واستغرقت في صدمة. لم تكن تتوقع أن يعترف بحبه ورغبته في الزواج بهذه السرعة.

نوارس لم تكن تعرف الكثير عن محمود، الشاب الأنباري الذي كان مصمماً على الزواج بها. لم تكن تعرف كيف تخبر أهلها عن رغبتها في الزواج منه، خصوصاً بعد أن أخبرها محمود عن عائلته وعشيرته. بدأ القلق يتسلل إلى قلبها، حيث أن والدها كان قد منعها من الاختلاط بأي شخص من هذه العشيرة بالذات. ومع ذلك، كان محمود يعبر عن حبه لها بكل شغف وجدية. رغم قلقها، طلب منها محمود التركيز على دراستها، ووعد بأنه سيتولى كل شيء خلال العطلة الصيفية دون أن يربكها بطلبه في الوقت الحالي.

كانت نوارس مشغولة بالامتحانات، وكان امتحانها الأخير مرهقاً للغاية. بعد أن عادت إلى منزلها، نامت طوال اليوم التالي. وعندما استفاقت، اتصل بها محمود وأخبرها أنه يرغب في لقائها. وجدت نوارس حجة للخروج سراً معه، حيث كان محمود ينتظرها على بعد مسافة من منزلها. وأثناء ركوب نوارس مع محمود، صادفت جارتها وهي عائدة من السوق، فبسرعة أخبرت الجارة زوجها بما رأته، وفوراً نقله الزوج إلى والد نوارس، مما أضاف تعقيداً جديداً للموقف.

ملك الفؤاد

في لقائه العاجل بنوارس، كان محمود عازمًا على إبلاغها بتفاصيل عائلته قبل أن تُفاجأ بهم لاحقًا. كان الخبر الذي صدم عائلته حديث المدينة، حيث أعلن محمود بكل حزم رفضه القاطع للزواج من ابنة عمه اليتيمة، التي لم تتجاوز سن المراهقة. كان والد محمود، المعروف بصرامته وقسوته كشيخ عشيرة، يصر على هذا الزواج كوسيلة لتخفيف عبء شعوره بالذنب تجاه وفاة شقيقه وتلبية تأنيب ضميره. لكن محمود كان مصممًا على عدم الانصياع لرغبة والده، مشددًا على أنه لا يتحمل مسؤولية طفلة يتيمة ولا يرضى بزواج لا يعود عليها بأي نفع.

بشدة وعزيمة، تمسّك محمود بحبيبته نوارس، مصمماً أمام أهله على أنه إن لم يُقدَّر له الزواج منها، فلن يتزوج أبداً. هذا التحدي أشعل نار الغضب في قلب والده، الذي رأى في هذا التصريح تحطيمًا لأمل قديم كان يراود خياله، وأدرك أن محمود قد يظل متمسكاً بقراراته مهما كانت التبعات.

لنا عودة

في نهاية اللقاء، طلب محمود رقم والد نوارس لترتيب موعد مع أهلها، ولكن نوارس لم تكن مرتاحة. في اليوم التالي، التقت بوالدها الغاضب، وكان اللقاء متوتراً. حاولت نوارس أن تتوجه نحو والدها لتحتضنه وتعبر عن شوقها، إلا أنه صفعها على وجهها بقوة، مما جعلها تسقط أرضاً. صرخ بوجهها متسائلاً: "هل كنتِ تتواعدين مع هذا الضابط الفاسد؟"

لم تستطع إقناع والدها بالحقائق. تفاقم الوضع عندما اتصل محمود بوالد نوارس، دون أن يعلم أن الأب كان قد اكتشف علاقته بابنته. زادت الأمور تعقيداً، واشتد غضب الأب وعناد نوارس، مما دفعها للعودة إلى بغداد تحت ضغط عائلتها.

بدأت عطلة نوارس بتعاسة لم تكن تتوقعها، حينما صادرت عائلتها هاتفها ومنعتها من الخروج. أصبح اللوم اليومي جزءاً لا يتجزأ من حياتها، وكأن أفراد العائلة استغلوا الفرصة ليعبروا عن شماتتهم وغضبهم الدفين. كانت والدتها أكثرهم قسوة في توبيخها، فيما غرقت نوارس في شعور عميق بالحزن والندم.

على الجانب الآخر، كانت تتوقع أن محمود، بعد أن تلقى توبيخاً حاداً من والدها، سيتراجع عن فكرة الزواج، لكن عكس كل توقعاتها، جاء وحده ليطلب يدها. غير أن فرحتها لم تكتمل. فبعد يوم واحد فقط، اكتشف والد نوارس الحقيقة المرّة: محمود ينتمي لعائلة عدوه القديم، مما أشعل نيران الغضب في قلبه وأدى إلى إصابته بجلطة.

استمرت العائلة في لوم نوارس بلا هوادة على مدار شهر كامل، بينما وعدها محمود بأن لن يتركها، وسيعود مجدداً لطلب يدها بعد أن ينهي مهامه كضابط. ورغم انشغاله بعمله، لم تفارق نوارس تفكيره، وفي لحظة قدرية، اكتشف أن الفتاة التي يعشقها هي ابنة عماد، أخ الرجل الذي قتل عمه. الثأر الذي يربط العائلتين زاد من حيرة محمود، وهو يقف عاجزاً أمام هذا الواقع المرير، متسائلاً إن كانت كل هذه الأحداث يمكن أن تكون مجرد صدفة.

في محاولة منه لإبعاد نوارس عن محمود، قرر والدها نقلها إلى منزل مستأجر في الأنبار، تحت إشراف عمتها التي رافقتها لتراقبها عن كثب. كان والد نوارس يدرك أن مجرد نقلها لن يكون كافياً لإنهاء هذه القصة، فقد رأى في عيني محمود الإصرار الذي أرعبه؛ كان يعلم أن هذا الشاب لن يتراجع بسهولة عن محبته لابنته، وأن المواجهة الحقيقية لم تنته بعد.

الثأر

ظن والد نوارس أن هذه الطريقة هي الأفضل لحماية ابنته، مؤمنًا أن محمود سيتراجع وينساها مع مرور الوقت في العام الجديد زاد تصميمه على رفض محمود، حتى وصل الأمر إلى رفضه لعدة مرات متتالية. قرر في النهاية مواجهة والد محمود وتحذيره شخصيا. بالمقابل، كان والد محمود يفكر بالطريقة نفسها.

مرت السنوات، وجمع القدر الصديقين في موقف يعيد ذكريات الماضي. كان والد محمود يرتدي العقال والعباءة، كونه شيخ عشيرته، وعندما رآه عماد بهذه الهيئة، شعر أن صديقه قد وجد مكانه الطبيعي. لكن نظرات والد محمود لم تخلو من الرسائل الصامتة، فهو أيضًا رأى في عماد شخصًا في مكانه الصحيح.

بعد لحظات من الصمت، تحدث والد محمود بهدوء

"ابنتك تحمل نفس عيونك يا عماد.

ابتسم عماد بسخرية ورد قائلاً:

وابنك ورث عنادك، أتدري ؟ لقد تقدم لخطبة ابنتي

ثماني مرات خلال العطلة، وفي كل مرة أرفض بشدة

لكنه يعود. وإن عاد مرة أخرى، سأضطر لإبلاغ الشرطة."

ضحك والد محمود بسخرية خفيفة، مما أشعل غضب عماد الذي صاح بحدة

"علينا أن ننهي هذه المهزلة الآن."

نظر إليه والد محمود بجدية قائلاً:

في كل الأحوال، محمود سيتزوج ابنة عمه المغدور

ولا أرى مانعًا في أن تكون ابنتك زوجته الثانية."

اشتعل غضب عماد وقال بحدة

هل جننت ؟ أزوج ابنتي لأحد من أعدائي؟ هل نسيت

الثأر أم تحتاج مني لتذكيرك به؟"

تنهد والد محمود وقال بصوت هادئ

لم ولن أنسى ما حدث. أخوك قتل أخي بسبب امرأة أحبها الاثنان. كما أن ابن عمي قتل أحد رجالكم، ولولا

تدخل الشيوخ، لكنت قتلت اخاك بيدي. لكن خوفي

من الله أقوى من حقدي."

قال عماد بنبرة هادئة:

"أخوك، رحمه الله، كان متزوجًا ولديه طفلة، ورغم ذلك أراد أن يتزوج حبيبة أخي. الشجار بينهما كان عنيفًا، وانتهى بمأساة لم يرغب فيها أحد. لم يكن ينوي قتل أخيك، لقد كان حادثًا. الجميع يعرف ذلك. السلاح كان محشوًا دون علمه."

تصلّبت ملامح والد محمود بالغضب، واشتدت قبضته وهو يرد بصوت متحشرج:

"ومن سيصدق هذه الرواية؟ لا في الماضي ولا الآن. لا أزال أكرهكم جميعًا، وأتمنى لكم الفناء. كيف كنا أصدقاء في يوم من الأيام؟ لا أستطيع أن أستوعب ذلك!"

(الوعد)

بعد لقائه بصديقه القديم، اكتشف عماد أن نيران الحقد ما زالت تتأجج في قلبه، كأن الثأر لم يحدث منذ اثني عشر عامًا، بل بالأمس القريب. صُدم كيف أن صديق شبابه المقرب أصبح الآن خصمًا لدودًا. لم يستطع أن يصدق أن الزمن يمكن أن يغيّر الناس إلى هذا الحد، وزادت مخاوفه من أن يكون والد محمود يسعى لإعادة تنفيذ ما حاول شقيقه فعله بزواجه من امرأتين. تساءل عماد بقلق: هل يتآمر محمود ووالده ضده، مستهدفين ابنته؟ شعور الذنب أرهقه، لابتعاده وجفائه تجاهها. لم يعد يحتمل استمرار هذا البعد.

في أحد الأيام، قرر عماد أن يفاجئ ابنته في الأنبار. خرجت نوارس من كليتها، منهكة من عبء الدراسة ومن مشاكلها العائلية والعاطفية، ففوجئت بوالدها ينتظرها عند الباب. ارتعشت عندما رأته، وبادرته قبل أن ينطق بكلمة: "أبي، أقسم أني لم أذهب لأي مكان دون علم عمتي. هي ترافقني دائمًا، ولم ألتقِ بمحمود أو أتواصل معه."

كانت كلماتها مشبعة بالحزن، مما زاد ألم والدها. احتضنها بصمت، ثم أخذها إلى مدينة الألعاب. هناك، نظرت إليه بدهشة، فأخبرها بأنه ما زال يراها طفلته الصغيرة كما كانت دائمًا. اعترف لها بأنها الأقرب إلى قلبه، أقرب من نور وسارة، وأنه يعيش في خوف دائم عليها. ثم تحدث بصوت متعب عن ثأر وقع عندما كانت طفلة صغيرة، ولهذا لا تذكره جيدًا . عندما أدركت نوارس أن محمود قد يكون جزءًا من مخطط للانتقام لعمه، ارتجفت من الرعب واندفعت نحو والدها باكية. توسّل إليها ألا تسمح لمحمود بخداعها، فوعدته بدموع في عينيها.

بعد وعدها، قطعت نوارس كل اتصال بمحمود، ملتزمة بكلمتها. ومع مرور الأيام، وجد محمود فرصة لمواجهتها في المستشفى حيث كانت تتدرب. اقترب منها، أمسك بمرفقها بلطف، محاولًا فهم سبب ابتعادها المفاجئ. عند رؤيته، تراجعت كأنها لسعتها أفعى. كان الخوف يملأ عينيها، فسألها بدهشة: "نوارس، لماذا تخافين مني؟"

حبست أنفاسها للحظة، ثم أدارت وجهها وهربت مسرعة، تاركة محمود في حيرة وذهول.

(الحادث)

محمود لم يفهم سبب الخوف الذي يعتري عيني نوارس الجميلتين، رغم كل محاولاته لكشفه. قرر أن يواجهها رغم تملصها المعتاد. بعد انتهاء التدريب، تجمع الطلاب حول الدكتور، كأنهم سحابة بيضاء بمعاطفهم الطبية، يسألونه بفضول. لكن نوارس لم تكن بينهم، مما جعله يدرك أنها ما زالت في الداخل. دخل ليجدها تغسل يديها، وعندما رأت وجهه، حاولت الهرب، لكنه أوقفها بحزم:

"انتظري، ما الذي يجري هنا؟ لماذا تتجاهلينني؟ ألم يكفِ ما فعله والدك بي؟"

نظرت إليه بحدة، وردت: "يكفي أنه أنقذني منك ومن انتقامك وحقد والدك."

عقد حاجبيه، متسائلاً: "ما هذا الكلام؟"

فقالت بغضب: "لا داعي للتمثيل، هذا ليس من شيم الرجال."

ثم تركته وخرجت، تاركة إياه في حالة من الصدمة. عاد محمود إلى منزله ليكتشف من والده أنه التقى بعماد دون أن يعلم شيئاً عن ذلك. أنهى والده حديثه بغضب:

"لو كنت ابناً باراً، لانتقمت لي من عماد، ولحرقت قلبه كما فعل بي. لكنك جبان."

صدم محمود مما سمع، وشعر بالألم والحيرة. قرر السفر إلى بغداد ليواجه والد نوارس ويطلب فرصة للحديث، لكنه رفض. ورغم إصراره على أنه لا علاقة له بثأر والده، لم يستطع عماد أن يثق به. حاول محمود التواصل مع نوارس لإقناعها ببراءته، لكنها رفضته، ورغم حزنها العميق، قررت التركيز على دراستها، فتفوقت بشكل لافت، مما أثار إعجاب الجميع.

مرت سنتان، وفي تلك الفترة، لم تستطع نوارس نسيان حبها الأول الذي جلب لها الكثير من الألم. وفي أحد أيام التدريب الصيفي في المستشفى، ساد المكان توتر غير عادي عندما دخل الجنود حاملين ضابطاً معروفاً مصاباً إصابة خطيرة. شعرت نوارس في أعماقها أن المصاب هو محمود. هرعت إلى الغرفة لتجد أن الدماء تغمره. لم تستطع كبح دموعها، وتوسلت لزميلتها أن تشرف على حالته. كان الأطباء الكبار مذهولين من حالتها المذعورة. مرت ثلاث ساعات وكأنها دهر، حتى تمكن الأطباء بصعوبة من استخراج الرصاصة والسيطرة على حالته.

تسللت نوارس إلى غرفته، رغم المنع، وأمسكت بيده، تقبّلها وتعتذر له وهي تبكي. شعرت بصدق مشاعره، وأدركت أنه لم يكن له أي علاقة بالثأر، تماماً كما هي.

(رائحة الموت)

امتلأت أروقة المستشفى بأقارب محمود، وكانت الأجواء مشحونة بالتوتر والحزن. دخل والداه إلى الغرفة، حيث وجدوا نوارس، التي ابتعدت عنه وهي تبكي بحرقة. التقت عيناها بعيني والده، اللتين كانتا كعيون جارحة لصقرٍ قاسٍ، ثابتةً لا تحمل أي أثرٍ لحزنٍ على ابنه.

لم تستطع نوارس مغادرة المستشفى، فاتصلت بعمتها لتخبرها أنها ستتأخر بسبب التدريب المهم. كانت تدور حول غرفة محمود، متجاهلةً الزائرين الذين يتقاطرون على سريره. وبعد ساعات من الانتظار، بدأ محمود يهذي قائلاً: "لا علاقة لي بثأر والدي... نوارس، أين أنتِ؟"

انزعج والده، وخرج من الغرفة ليفاجأ برؤيتها تبكي في الخارج. مر بجانبها غاضباً، حدق بها بنظرة قاسية كأنها تهمة. أما أم محمود، فكانت ككل أمٍ تتمنى أن تفعل المستحيل لأجل ابنها. توسلت إلى نوارس أن تدخل وتبقى بجانبه لتخفف عنه، وهذا ما حدث بالفعل.

تغيرت الكثير من الأمور بعد هذا الحادث، وكانت أم محمود لها دورٌ كبيرٌ في السعي لتقريب ابنها من نوارس، رغم اعتراض والده. قاطع والد محمود ابنه، لكن محمود لم يهتم، ووعد والد نوارس أنه سيسعد ابنته مهما كان.

مع مرور الوقت، قرر محمود بعد الزواج أن يبني بيتًا بالقرب من بيت عماد في بغداد. بدأ العمل على البيت، وسارت الأمور على ما يرام، وتمت الخطوبة، رغم قلق عماد الذي لم ينتهِ. كان يتردد في قراراته، ولكن دموع نوارس وتوسلاتها جعلت قلبه يلين.

كان يرى في محمود صدقًا وشهامة، وعزم على دعم هذا الحب الذي بدا قويًا، حتى في وجه التحديات. ومع اقتراب موعد الزفاف، أصبحت الأيام تسير ببطء، مليئة بالتوقعات والأحلام. لكن في داخل كل واحد منهم، كانت تتشكل أسئلة عن المستقبل، وتأملات في ما إذا كانت النوارس ستطير بحرية، أم ستظل أسيرة لذكريات الثأر المؤلمة.

استمرت السعادة لبضعة أشهر، كأنما رسمت الحياة لوحة جميلة مليئة بالألوان الزاهية. لكن فجأة، تكسرت هذه اللوحة تحت وطأة حقد والد محمود، الذي طالما حلم ببطولة ابنه الضابط. في لحظة واحدة، تحول الفخر إلى كابوس، حين استشهد محمود دفاعًا عن وطنه في حربه ضد الإرهاب. لم يرَ والد محمود في ذلك سوى فخرٍ وسعادة، كما لو كان يزفه عريسًا إلى الموت بلا رجعة.

تسمرت نوارس في مكانها، غابت عن العالم لشهرين أو أكثر. عاشت في دوامة من الأحلام والكوابيس، حيث كان يظهر لها محمود في كل مرة، كأنه يدعوها للانضمام إليه في عالم لا يعود منه أحد. كانت تتوق لرؤية وجهه، لكن كل مرة كانت تستيقظ فيها، كانت تشعر بفراغٍ قاتل، وكأن قلبها قد انكسر إلى شظايا صغيرة.

في يوم الجنازة، حضر عماد، والد نوارس. بكى على الشهيد الشجاع، لكن دموعه كانت مزدوجة، فقد كان يذرفها أيضًا على ابنته التي تتأرجح بين الحياة والموت. كانت نوارس تتلقى العلاج في مستشفى قريب، حيث كانت حالتها النفسية تتدهور بشكل متزايد. في تلك اللحظة، كان والد محمود يقف بالقرب من القبر، ينظر إلى عماد بشماتة وكأنه قد انتصر على الجميع. طغى حقده على قلبه حتى بات كمنتصرٍ في النهاية، بينما انقضت عليه مشاعر الفخر والكره في آن واحد.

(بدأت الحكاية)

لم تكن نوارس تعلم كيف مرت السنوات، فدراسة الطب كانت أشبه بعبور نهرٍ متقلب، تتلاطم فيه الأمواج، وتخطفها تيارات الألم والتذكّر. لقد كان استشهاد خطيبها محمود بمثابة الزلزال الذي هز كيانها، ورغم محاولاتها الدؤوبة لتجاوز الحزن، ظلت جراحها تنزف. ومع ذلك، كانت تلك الرحلة إلى عالم الطب بمثابة بصيص الأمل الذي أضاء عتمتها، حتى لو كان ذلك مؤقتًا.

كان والد نوارس يراقبها، عينيه مليئتين بالقلق والهم، وهو يرى كيف أن الحزن طغى على روحها. لقد كانت تبتعد أكثر فأكثر عن حياتها الطبيعية، وكأن قلبها قد أُغلق عليه. كان يعود بها إلى ذكريات محمود، التي باتت مؤلمة كالشوك في كل زوايا ذاكرتها.

كلما زارت أم محمود نوارس، كان اللقاء يحمل طابعًا مزدوجًا من الحزن والحنين. تلك السيدة، التي تحمل كل أثقال العالم في قلبها، كانت تعانق نوارس وكأنها تعيد رسم ملامح ابنها الغائب. "نوارس، أنتِ الأثر الوحيد الباقي من محمود"، كانت تقول بدموعٍ تتلألأ في عينيها، مما كان يزيد من عمق الجرح في قلب نوارس.

رغم التعاطف الذي كانت تحظى به، كان كل لقاء مع أم محمود بمثابة جرعة من الألم. كانت نوارس تستشعر حزن الأم كأنه حزنها، ومع ذلك، لم تستطع منع تلك اللقاءات؛ فحتى في وسط الألم، كانت تجد في حضن أم محمود شيئًا من السكينة.

مرت الأيام ثقيلة، والمخاطر تتزايد في ظل الوضع المتدهور للعراق. وعندما أُتيحت لها الفرصة للانضمام إلى قافلة طبية لمساعدة الجنود المصابين على الحدود، شعرت بشيء من القوة، وكأنها تبحث عن هدف يتجاوز أحزانها. لكن القدر كان يحمل لها تجربة لا يمكن تخيلها.

في يومٍ مشؤوم، وبينما كانت القافلة تسير في طريقها، توقفت فجأة على يد مجموعة إرهابية. اختلطت الأصوات، وتبعثرت الهتافات. وفي لحظة واحدة، سقط الطبيب الوحيد، جسده يتهاوى أمام أعينهن. ذهولٌ وصراخ، ثم جاء الخطف وسط الفوضى والرعب الذي لم يكن بالحسبان.

تجمدت نوارس في مكانها، كل ما كانت تحلم به من شجاعة وتحمل أصبح يتلاشى، وبدلاً من ذلك، شعرت بأن الخوف يسحبها إلى أعماق ظلامٍ لا مفر منه. في تلك اللحظة، أدركت أن معركتها لم تنتهِ بعد، بل بدأت لتوها، وأن عليها مواجهة هذا الخطر بعزيمة لم تعرفها من قبل.

(خطر)

لم تستفق أي واحدة منهن من الصدمة، إلا أن نوارس التي بقيت صامتة، لم تبك ولم تصرخ، كانت الملاذ لهن فاستمددن منها القوة. ومع ذلك، تعرضن لأبشع أنواع الإهانة والتهديدات. وعندما رفضت إحداهن معالجة الجرحى، وضع السلاح في حلقها وتعرضت للتهديد بالقتل نوارس، رغم صراخها الداخلي، ظلت تتحدث معهم بهدوء، محاولةً تهدئة الوضع. كان من الواضح أنه لا يمكن التصرف بتهور، بل بحنكة وذكاء، فبدأت بالاعتناء بالمصابين تحت ضغط التهديد المستمر.

كانت دموع نوارس تتساقط بصمت وهي تتوسل إلى ربها، حتى أتاها أحد المسلحين موجهاً سلاحه نحوها

أمراً إياها بالاهتمام بأحد أبرز عناصرهم المصابين. هددها بأنه إن أصاب هذا الرجل أي مكروه بين يديها فإنها ستقتل هي وصديقاتها مضطرة، دخلت الغرفة تحمل الأدوية في يديها

نظرة واحدة إلى الشخص الملقى على السرير المغطى بدمائه، جعلتها تصعق وتدخل عالمًا آخر. كل شيء حولها تلاشي، وتركزت عيناها على ذلك الوجه الذي بدا مألوفًا، لكنه في الوقت نفسه كان غريبًا. اقتربت من سرير المصاب همست باسمه بصوت مبحوح: "محمود." كانت ترتجف ووضعت أناملها المرتجفة على جبينه، مشاعرها تتصارع بين الفرحة والذهول، من دون إدراك منها.

فجأة، قبض على يدها بقبضة فولاذية. فتح المصاب عينيه بصدمة، وحينما رأت عيناه الزرقاوين وجبينه الذي يحمل أثر جرح قديم، أدركت أنه ليس محمود بل شقيقه محمد تهاوت نوارس على الأرض، منهارة بالبكاء، وهي تردد: "لماذا تركتني يا محمود ؟ أرجوك عد وخذني معك." كان كأن العالم كله انهار حولها.

أما محمد، الذي كان يعاني من إصابة في صدره، فقد

نظر إليها بدهشة كبيرة، تضاعف ألمه وهو ينهض

متأوهاً. وضع يده على جرحه، وصوته كان متحشرجا

"لماذا أنت هنا ؟ من جلبك ؟" ثم انهمرت منه ألفاظ

قاسية وبذيئة، كأنها خنجر يغرس في قلبها.

رغم الألم الذي عصف بجسده نهض محمد ودفع السلاح بعيدا عن ظهر نوارس حين اقترب أحد المسلحين ووجهه نحوها، وقد كانت لا تزال تبكي منهارة، ظانة أن المصاب هو محمود. لقد سقطت كل أحلامها، وبقيت في دوامة من الحيرة والخوف، تتأمل في عيني محمد محاولة فهم ما حدث.

كان الهواء مشحونا بالتوتر، والذكريات تتدفق في عقل نوارس كالنهر الجارف. طرد محمد العنصر المسلح بأمر صارم، محذراً إياه من الاقتراب من الدكتورة. نظرت إليه بحقد، وكلمات محمود تتردد في ذهنها: "لقد أخبرني محمود أنك شخص سيء، لكن لم أتوقع أبداً أن تكون إرهابياً."

رغم الرعب الذي خيم على قلبها تماسكت نوارس مسترجعة أول لقاء لهما. كان ذلك عندما كانت مخطوبة المحمود، يتأهبان لزفافهما بعد شهر. توسلت إليه أن يذهب إلى عائلته ليكسب رضا والده، لكن محمود كان يعرف أن والده متعصب لن يقبلهم. ومع ذلك، استجاب لرغبتها، وحضروا في توقيت غير مناسب، إذ عاد محمد من السجن بعد سنوات، ليجد نفسه مطرودًا من عائلته.

غادر محمد البيت، والغضب يشتعل في عينيه. نظر إلى أخيه التوأم محمود، الذي كان ممسكا بيد خطيبته ونظراتهما تجمدت في لحظة صمت. كان الفرق الوحيد بينهما لون العينين والجرح العميق على جبين محمد بتر محمد نظره عن أخيه، محدقاً في الفتاة الجميلة التي تشبثت بذراع محمود عارفًا أنها سبب غضب والده، ابنة عائلة الثأر التي ذكرها بشيء من الحسرة.

عادت نوارس من ذكرياتها إلى الواقع البائس، حيث كانت الأجواء تعج بأصوات الاشتباكات وإطلاق النار. حاولت الخروج، لكن يدًا قوية سحبتها، محاصرة إياها خلف الستارة. كتم محمد صوتها بكلتا يديه، واختنقت كلماتها في حنجرتها. حاولت أن تصرخ، لكن صوت الرصاص كان يخنق أنفاسها، كما خنق واقعها الأليم.

في تلك اللحظة، أدركت نوارس أن هذا الواقع لا يمكن الهروب منه، تجمعت المشاعر في صدرها كخيوط عنكبوت متشابكة، وهي تتساءل: هل ستجد طريقها للخروج من هذا الكابوس ؟ ومع كل صرخة مكتومة، كان الخوف يزداد وعزيمتها تتلاشى.

(الهروب)

صرخات صديقاتها ترددت في عقلها، تلك الأصوات التي لم تزل ترن في أذنيها وهي تتوسلن الجنود، لكن كل تلك الآمال تحطمت أمام جبروت القدر. محمد كان هناك، رجل مثل الجلاد، فتح بابًا سريًا كأنه فوهة جحر عميق. خطواته كانت خافتة، لكنه كان يحمل السلاح بثبات. أمسك بها بقسوة، لا يعطيها مجالًا للمقاومة. حاولت بكل ما أوتيت من قوة أن تدافع عن نفسها، سددت كوعها إلى صدره، لكن الألم الذي تسببت به لم يكن كافيًا ليوقفه. أصر على سحبها حتى وصل بها إلى سيارته، وعيناه كانتا مليئتين بشيء لم تستطع فهمه... هل هو الغضب؟ أم الشماتة؟ أم ربما الرغبة في الهلاك؟

نظرت حولها وهي في السيارة، الصحارى تمتد إلى ما لا نهاية، وكأن العالم كله قد تحول فجأة إلى مساحة خالية، غريبة عنها تمامًا. كانت تحاول الصراخ، لكن في اللحظة التي همت بها، رش على وجهها مادة غريبة، وسرعان ما فقدت الوعي، تاركة وراءها كل ما كانت تعرفه، كل حياتها السابقة. تلك كانت اللحظة التي بدأت فيها حياتها الجديدة، حياة مليئة بالغموض والخوف.

أما صديقاتها، فقد تم إنقاذهن، لكن لم تكن لهن فكرة عما حل بها. في مخيلتهن، كانت ربما مختبئة في مكان ما، لكن الحقيقة كانت أسوأ بكثير. فقد وقعت في قبضة محمد، ذاك المجرم الذي، كان توأم خطيبها محمود، لكن بروح مظلمة ومصير مشؤوم.

وضعها في غرفة مظلمة ببيت مهجور، كأنه قديم وقابع في وسط مكان نائي. كانت المنطقة خالية من البشر، إلا من قلة من المجانين والمتسولين الذين يتجولون في المكان كالأشباح. محمد، ورغم جرحه الذي كان يتلوى بسببه على الأرض، بدا وكأنه يتحداها حتى وهي ممددة على الأرض، ودماؤه تتدفق بلا توقف.

عندما استعادت وعيها رأت في معاناته فرصة للهروب. وقفت وهي تراقبه يتنفس بصعوبة، شاحب الوجه، وعيناه تغلقان رويدًا رويدًا. الموت كان يقترب منه، لكن بدلًا من أن تنتهز الفرصة وتركض، وجدت نفسها تعود لتقف بجانبه. رغم الرعب الذي كانت تشعر به، عرفت أنها لا تستطيع تركه يموت هكذا. بحثت حولها، ورأت الأدوية والأدوات الطبية موضوعة بالقرب منه، وكأنه كان متأكدًا من أنها لن تتركه ينزف حتى الموت.

عالجت جرحه، ضاغطة على نفسها ألا تفكر كثيرًا. كان العلاج يتم بشكل آلي، أفعال متتابعة، كأنها تفعل ما يجب عليها دون أن تفكر. لكنها لم تستطع تجاهل الفرصة، بحثت في جيوبه، ووجدت مفاتيح السيارة. ترددت للحظة، ثم أخذت المفاتيح بهدوء، لكن قبل أن تتمكن من التحرك، أحكم قبضته على يدها. همس بصوت غارق في الألم والتهديد: "لا تحاولي الهروب... أنت في أخطر مكان. لو خرجت، ستقعين في أيدي مجانين لا يرحمون. هنا، يمارسون الجنس حتى مع الحيوانات. تخيلي مصيرك لو أمسكت بك أيديهم."

كلماته كانت مرعبة، لكن الخوف لم يمنعها من المحاولة. خرجت، متجاهلة تحذيراته. وما إن خطت خطواتها الأولى حتى رأت مجنونًا عاريًا يركض باتجاهها. عادت بسرعة إلى الداخل، أنفاسها متسارعة، قلبها ينبض بجنون. المكان كان يزداد ضيقًا وخوفًا مع كل محاولة هروب. في كل مرة كانت تعود لتجد نفسها في مواجهة قدر أشد قسوة مما كانت تتوقع.

رفعت رأسها بخفوت وهي تمسح ما تبقى من دموعها الملتصقة بخديها، محاولة جمع ما تبقى لها من شتات القوة الهروب لم يكن خيارًا مجديًا، دائما كان ينتهي بالفشل. ولقد عادت ، بعدما صدها الخوف والقدر لتسمع ضحكة محمد الساخرة ترنّ كجرس الموت في أذنيها. تلك الضحكة التي كانت كالسيف المعلق فوق رقبتها، تذكرها بعجزها عن الفرار.

نظرت حولها لتجد جسده الملقى على الأرض، ساكنا وكأن العالم الخارجي كان أخطر بكثير مما يلوح أمام عينيها. ولكن، ماذا تفعل الآن ؟ أين تذهب؟ جلست على الأرض تندب حظها المتعثر دموعها تتدفق بلا توقف وغلبها الإرهاق فغفت قُرب الباب عيناها متورمتان من كثرة البكاء.

استيقظت بعد ساعات فركت عينيها اللتين أثقلتهما الدموع، استوعبت أنها لا تزال في الجحيم ذاته. قلبها يدق بسرعة، نظرت إلى مكان جسده فلم تجد إلا بقع الدم التي تركها خلفه، ثم توجهت بعينيها الخائفتين إلى المطبخ كان هناك ما زال عاري الصدر، يشرب الماء بنهم وكأنه يبحث عن شيء مفقود.

رأت في انشغاله فرصة للهرب تسللت ببطء كمن يهرب من طيف الموت، فتحت الباب برفق، وفي يدها مفتاح سيارته الذي أخذته سرا. الهواء البارد لفح وجهها فور خروجها، الفجر بدأ يتسلل بخيوطه الهادئة إلى السماء. المنطقة كانت مهجورة المنازل غارقة في المياه والمجاري، والشوارع ملأتها النفايات المبعثرة والأوساخ التي تحكي عن إهمال طويل.

خطت خطواتها الأولى في الطريق المهجور، تبحث بلهفة عن سيارته بين الزوايا، ولكن بلا جدوى الشوارع كانت صامتة كالموت هادئة إلا من صوت حذائها المبتل في الطين. ولكن فجأة، تبعها كلب أسود، كان ينبح بصوت مخيف قلبها ارتجف تسارعت أنفاسها وركضت بلا تفكير، وهي تصرخ طالبة النجدة. ولكن الصمت كان سيد الموقف، لم يستجب أحد لندائها.

وفي لحظة من الفزع التام، ظهر أمامها ذلك المجنون العاري الذي رأته في الليلة السابقة. كان يقترب منها وهو يلامس جسده بطريقة مقززة عيناه مسلطة عليها تملأها نظرة شهوانية لا تخطئها عين شعرت بالغثيان يجتاح جسدها.

لكن قبل أن تنهار من الرعب، رأت محمد. أمسك بالكلب ضاحكا بصوت ساخر، وقال: "ألم تري جسد رجل من قبل ؟"

لم تستطع الرد كانت تحاول جاهدة الهرب مجددا، ولكن محمد أمسك بها بعنف جرها إلى الداخل، وكأنها مجرد دمية بين يديه. صرخت وهي تحاول تحرير نفسها من قبضته: "لماذا لم تدعني أذهب مع صديقاتي ؟ لماذا اختطفتني ؟! احترم على الأقل ذكرى أخيك الراحل، فأنا زوجته ألا تملك ذرة من الرجولة ؟"

دفعها إلى الداخل بقسوة، وصوته كان باردًا مثل جليد "اختطفتك لأنني بحاجة إلى من يعالج جراحي هل تعتقدين أنه من السهل العثور على من يعالج مجرما مثلي ؟ تتحدثين عن الرجولة ؟ أنا مجرم وما علاقتي بأخي ؟ لقد تركني ونبذني عندما خرجت من السجن، وأنا لا أحتاج إلى شفقة أحد."

ارتفع صوتها محاولة أن تخفي خوفها وراء كلمات

غاضبة: "لا علاقة لي بمشاكلكم العائلية أنا هنا فقط

لأنني كنت حمقاء لعلاجك بدلا من الهرب. إن كنت تملك

ذرة شرف، أعدني إلى مكاني أفعل شيئا واحدًا صحيحًا

في حياتك، فقط واحدًا!"

نظر إليها بتحدٍ، ابتسامة ساخرة ترتسم على شفتيه

وكأنه يستمتع برؤية ضعفها. لم يعد لها أي مكان آمن

لقد أصبحت رهينة ماضيه المظلم، وهي لا تعرف كيف

ستنجو من هذا الجحيم.

(المجتمع)

أغلق الباب خلفه بعنف، تاركًا إياها تواجه صدى كلماتها التي ارتطمت بالجدران وكأنها تخاطب فراغاً لا يعترف بوجودها. لم يكن يكترث لأي من حديثها، وقد ملَّ صراخها وثرثرتها التي لا تنتهي. اقترب بخطواته الثابتة، بوجه متجهم لا يحمل سوى الغضب، يمسك بعلبة بخاخ بين يديه، وعيناه تشتعلان تحدياً. وقف أمامها وقال بنبرة حادة، خالية من الرحمة: "هل تريدين أن أُسكتك بطريقتي الخاصة؟"

شعرت بجسدها يرتجف كأوراق الشجر في مهب الريح. صمتت للحظة، ولسانها عاجز عن النطق، فيما أفكارها تتصارع في رأسها، تلعن حظها الذي أوقعها في هذا الموقف. لم يكن أمامها سوى الأرض لتلجأ إليها، جلست بجوار الباب وهي تحتضن ركبتيها، وعيناها تبحثان عن خلاص لا يأتي. لكنه لم يُمهلها فرصة للهروب من عذاباتها، وضع أمامها طبقاً يحتوي على بيض مسلوق، وصوته البارد ينساب إليها: "كلي... أو انتظري عقاباً أسوأ."

نظرت إلى الطبق بنفور، وكأن الطعام أمامها رمزاً للعجز والذل. امتنعت عن لمسه، رغم إدراكها لخطورة عصيانه. لم يبد عليه الانزعاج، بل سحب كرسياً وجلس أمامها ببرود قاتل. بيد كان يدخن سيجارته، وباليد الأخرى يحتسي شايه كمن يستمتع بمشهد مأساوي.

قال بجدية، وعيناه تلمعان كالجمرات تحت الرماد: "هل تعتقدين أن أهلك سيستقبلونك بالأحضان بعد غيابك؟ أربع وعشرون ساعة فقط كافية لتحطم سمعتك. أول ما سيتهمونك به هو..." توقف للحظة، وعيناه تهبطان إلى معطفها الطبي الأبيض، ثم أكمل بابتسامة ساخرة: "لقد اتهمكِ الناس من قبل بإنك النحس وسبب موت محمود... أليس كذلك؟"

اتسعت عيناها من الذهول، وسألت بخوف مختلط بالدهشة: "كيف عرفت ذلك؟"

ضحك ضحكة خافتة، مفعمة بالسخرية، ثم تابع دون أن يتوقف: "وليس هذا كل شيء. بعضهم يقول إنكِ رفضت الزواج لأنكِ... مارست الفاحشة مع خطيبك. هل تتخيلين ما سيُقال عنكِ الآن بعد اختفائك؟ ربما يقرر أهلك التخلص منكِ لغسل العار."

غمر الرعب قلبها، وكأن كلماته أحاطت بها كسجن مظلم لا مفر منه. صرخت وهي تحاول تفسير ما يحدث: "هل أرسلك والدك لتنتقم مني؟"

لكن ضحكاته الساخرة أجابتها قبل أن ينفي، كأنه يتلذذ برؤية الفزع في عينيها. نظر إليها بتلك النظرة الجريئة التي تخترق روحها، ثم قال ببرود يبعث على القشعريرة: "ماذا لو عرضت عليكِ حلاً؟ أن تصبحي عاهرة لرجل واحد فقط. وفي المقابل، سأجعل الجميع يصدقون أنكِ ميتة. ستكونين شهيدة، ولن يقترب أحد من سمعتك بعد ذلك."

أضاف بنبرة كأنها تخرج من قلب شيطان: "الشرف مجرد وهم... عيشي معي، وسأحررككِ من كل هذا."

ارتجفت وهي تحاول جاهدة فتح الباب بيد مرتعشة، غير مصدقة أن هذا الشخص المريض يقف أمامها، يشبه أخاه شكلاً، لكنه يحمل قلباً أسوداً. حاولت الهروب، إلا أن يده امتدت إليها، وسحبها نحوه بقوة، هامساً في أذنها بصوت مقيت: "كم تريدين من المال؟ سأعطيكِ كل ما تريدين."

صرخت به وقد انهمرت دموعها: "اصمت!"

(حدود)

محمد، الغارق في دمائه داخل مخبئه، لم يتوقع أبدًا أن تجمعه الأقدار بنوارس، خطيبة أخيه، في هذه اللحظة الحالكة. مشهدها بين أيدي الإرهابيين أثار في نفسه مزيجًا غريبًا من الخوف والغضب. رغم ما بينه وبين عائلته من توتر، شعر فجأة بأن عليه واجب حمايتها، فهي تظل جزءًا من عائلته. لكن الغضب الذي اجتاحه تحول بسرعة إلى حاجة أخرى، حين اقتحم الجيش عزلته هو وعناصره، لتتحول نوارس من رهينة إلى ممرضة يحتاج إليها لتضميد جراحه.

هرب بها إلى مكان ناءٍ، بعيدٍ عن الأعين، مطمئنًا بأنها لن تجد وسيلة للهروب، وأنها ستبقى بجانبه لتعتني به حتى يتعافى. لكنه لم يستطع تجاهل شعور آخر بدأ يتسلل إلى أعماقه؛ لم تعد الحاجة لها مقتصرة على شفائه الجسدي، بل بدأت رغباته تتجاوز ذلك. شعر فجأة بأنه لا يريد التخلي عنها حتى بعد شفائه.

التقلبات في مشاعره أربكته، وكأنه يكتشف وجهًا جديدًا لنفسه لم يعرفه من قبل.

ظلت صامتة بعد أن تركها وصرخ في وجهها بقسوة، يأمرها بالصمت. وضعت يدها على فمها محاولة كتم دموعها وكلامها، ومرّ اليوم مرة أخرى وهي تمتنع عن الطعام حتى حلول الليل. أثار عنادها استياءه، ولم يعرف كيف يتعامل معها. تركها وذهب ليستحم، بينما توجهت هي للمطبخ، حيث رأت علب الخمر تملأ المكان. وجدت بعض الجبن فأكلته على معدة خاوية، ثم شربت بعض الماء وبدأت تبحث عن سلاح أو مفاتيح الباب، لكنها لم تجد شيئاً.

بقيت في مكانها حتى عاد إليها قائلاً بلهجة تهديد: "تخيلي ماذا يقول الناس عنكِ الآن، مع كل ساعة تمر وأنتِ بعيدة عن أهلك. تزداد الشائعات، وستواجهين الجحيم حين تعودين."

نظرت إليه بتحدٍّ وقالت: "وهل جحيمك أفضل؟"

ردّ بثقة: "نعم

_جحيم بشرفي أفضل من جحيم بلا شرف."

هزّ كتفيه بلا اهتمام، وأردف: "ماذا تعرفين عني؟ هل أخبرك محمود عن قصتي؟"

أجابته بحدة: "لا، فقط قال إنك شخص سيئ، ولكن هذه الكلمة لا تفي بحقك أيها الفاجر."

ظنت أنها قد أغضبته بكلامها، لكنه لم يبالي. ثم ظهرت في عينيه علامات تساؤل، فسألها: "لماذا كانت والدتي تزورك بعد وفاة محمود؟"

ردت ببرود: "هل خطفتني لتستجوبني عن عائلتك؟ إن كنت تهتم لأمرهم، فاذهب واطلب منهم المغفرة على أفعالك القذرة، فأنت تجلب لهم العار."

ابتسم بسخرية وقال: "لقد جربتِ أنتِ طلب المغفرة من والدي، لكنه لم يستجب لكِ ولا حتى لمحمود. وحتى بعد وفاته، لم يسامحه، رغم أنه لم يرتكب أي جريمة سوى أنه أحبك."

في تلك اللحظة، امتلأت عيناها بالدموع، ونسيت لبرهة أن الذي يقف أمامها هو مجرم وخاطف. شعرت بأنه ظل لمحمود، جزء منه. استيقظ في قلبها شوقٌ حارق يلسعها بلهيب الفقد.

تنهدت وقالت: "مات محمود وهو حزين. لا أعلم ما هو الحقد الذي يملأ قلب والدك. لقد حرمنا من فرحتنا التي لم تكتمل، ولم نرتكب أي خطأ. ورغم كل اللوم والكلام القاسي الذي سمعته من أهلي، إلا أن أبي سامحني ووافق على زواجنا، ناسياً كل شيء."

ثم بدأت تروي قصتها مع محمود منذ اللحظة الأولى التي التقيا فيها، وكيف كان حبهما محاطاً بالحدود والقيود التي وضعها القدر.

(خرافة)

لم تفارق نوارس شكوى المعاناة التي تسبب بها أبو خطيبها، الذي عمد إلى تشويه سمعتها أمام المجتمع، وادعى بأنها أغوت ابنه وجعلته يتخلى عن عائلته للالحاق بها. ورغم وفاة محمود، لم تتوقف الأقاويل، وكان والد محمود من أكثر المتشمتين بها، وكأنه يشعر بسعادة غامرة من انتصاره المزعوم، رغم توتر العلاقة بينه وبين والد نوارس.

أمضت نوارس وأم محمود فترة الحزن بتقليد طقوس الفراق، بينما كانت نوارس غارقة في مشاعرها، غير آبهة بنظرات الناس ولا بسمعتها الملطخة بسبب ادعاءات أبو محمود، الذي عرض على والدها تزويجها لأحد أقاربه كنوع من ستر عارها. ومع تفاقم الأوضاع في العراق، قرر والد نوارس السفر خارج البلاد لحماية ابنته من وصمة العار التي التصقت بها.

لم يكن عماد ليشك في ابنته، لكن بعد اختطافها، أصبح مدركًا أن الدفاع عنها قد يكون مستحيلاً. وازداد همّه بسبب استهزاء أبو محمود، إلا أن عماد ظل مقاوماً، باحثاً عن ابنته رغم تدهور صحته وظروف عائلته الصعبة، كان يخشى بشدة على نوارس.

، استمر عماد في انتظار نوارس، الوحيدة التي لم تنجُ من براثن المجرم الخطير.

وفي لحظة من اللحظات، سألها محمد بحيرة:

"لماذا تبكين؟"

أجابت نوارس: "لا يهمني كلام المجتمع، بل ما يهمني هو أن لا أفقد ثقة والدي، ولا أعطي فرصة لوالدك للشماتة بنا. لقد خسرت محمود، لكن لا أريد أن أخسر شرف عائلتي الذي يراهن عليه والدك."

رد محمد مستهزئًا: "لماذا تتصرفين وكأنك قديسة، متشبثة بأساطير عفا عليها الزمن؟ أُعطيك فرصة نادرة لتستعيدي راحة بالك وتقدير المجتمع، ولتتخلصي من حقد والدي الذي قد يدمر حياتك. أنت تعلمين مكانة الشهيدة في مجتمعنا الفاشل."

فأجابت نوارس بثبات: "إن كان الشرف مجرد خرافة، فلا أعتقد أن الحب كذلك."

(قصة محمد)

ظل ينظر إليها بعمق، وعيناه تتسابقان مع الألم الذي يمزق جسده كانت بقعة الدم تتسع على ضماد صدره وهي تنظر إليه ببرود، قائلة: "ممنوع الاستحمام على جرحك العميق، ويجب تغيير الضماد.

استلقى على الأريكة مشاعر الألم تجتاحه، وأغمض عينيه محاولاً طرد الكوابيس التي تلاحقه. عندما فتحت الضماد لترى جرحه النازف، بدأت تعالجه وهي تبدو منزعجة.

"لا شيء يشفع لك سوى وجهك الذي يشبه وجه حبيبي. ولولا هذا الشبه لتركتك تموت كما يموت الحيوان.

رمقها بنظرة حادة، قائلاً بسخرية: "شكراً على كرمك."

استمرت في حديثها بنبرة تحمل كل حقد العالم: "لا أفهم كيف يمكن لضابط شجاع أن يكون له أخ إرهابي ووالد حقود مثل والدك ربما كان محمود محظوظاً لأنه نال الشهادة وتخلص من العار الذي سيلاحقه بفضل أخيه المجرم الذي خطفني."

ظل ينظر إليها بتمعن، متجاهلاً كلماتها، وأجابها ببرود:

بل إنت المحظوظة لكوني مصاباً. وإلا لعرفت كيف

أجعلك تصمتين فليس لديك سوى لسان مليء بالكلمات

كالسلاح."

ابتعدت عنه، ورمقته بحقد، قائلة: "قول الحقيقة دائماً قاسٍ. أنتم من قتل محمود الذي حاربكم وقضى على الكثير. سأكون مثله، وإن لم يكن بشجاعته، فسأكون محاربة لكم بلساني."

أمسك بيدها بقوة، قربها منه وهو على الأريكة: "ما رأيك أن أقطع لك هذا اللسان ؟ بماذا ستقاتلين؟"

ابتعدت عنه، تشعر بالقرف، ودموعها تنهمر وهي تفكر في حال أهلها وغيابها الذي يزداد مع كل لحظة.

تأفف محمد بضيق من وضعها، قائلاً: "سأروي لك قصة حتى يزيد بكاءك أكثر."

"لا أريد سماع شيء. اتركني أبكي على حظي العاثر. لا يهمني ما تقول كله كذب لأول مرة أتفق مع والدك في شيء، وهو طردك. إنها الحسنة الوحيدة التي فعلها في حياته."

ضحك محمد، مما زاد من غضبها ، وهي تقول: "هل تريد أن تخبرني عن جرائمك ؟ هل تريد مني أن أصفق لك؟ أي قصة كاذبة سترويها لي؟"

فجأة قال لها: "أنا" الشاب الذي قتل زوجته في ليلة العرس، وتم سجنه لسنوات. ثم ساعدني بعض أصدقائي للخروج من السجن، بينما كان أخي وأبي منزعجين لأن المحكمة لم تحكم علي بالسجن المؤبد.

نظر إليها ببرود، متسائلاً عما إذا كانت ستظل تراه كما

كانت تفكر سابقًا، أم أن كلمات الحقيقة ستغير كل شيء.

(الرسالة)

ربما تكون قصتي مشابهة لقصتك مع أخي أحببت فتاة عشقاً صادقاً، وعشنا معاً قصة حب مليئة بالشغف واللهفة. لكن والدي قابل هذا الحب بالرفض، ليس بسبب الثأر، بل لأن الفتاة كانت يتيمة وفقيرة، لا تملك حسباً أو نسباً يناسب وضعنا الاجتماعي. كان أبي يعشق التكلف والتفاخر على الرغم من ذلك، صممت على الزواج منها، حتى بعد أن اتهمها بأنها فاجرة وساءت سمعتها في عينيه.

في يوم زفافي، بعد احتفال بين أصدقائي وشرب الخمر توجهت إلى عروستي مليئاً بالحماس والشوق. لكن ما وجدته كان مصيبة. كانت عروستي ميتة، قد ابتلعت كميات كبيرة من الحبوب، وبجانبها رسالة بسبب سكرتي، لم أصدق ما رأيت، وظننت أنها تمزح كما كانت تفعل دائماً.

قرأت رسالتها التي كتبت فيها: "حبيبي محمد، أنت أكثر رجل عشقته في حياتي. لقد وصل بي حبك إلى حد الموت لأجلك. أنت الرجل الوحيد الذي احترمني، ولم يستغل جسدي لشهواته. لكن حبك لوحدتي ويتمي جاء متأخراً. لقد عشت مع الكثير من الرجال الذين ظننت أنهم يحبونني، لكنهم استغلوني باسم الحب والزواج وتركوني بلا كرامة.

لأني وحيدة، كنت ألهث وراء الحب والعاطفة، وقعت في شباك الفساد، متنقلة من علاقة إلى أخرى، حتى أضعفتني تلك العلاقات المحرمة. وبعد أن تبت، جئت إليك، الرجل الوحيد الذي أحبني بصدق. لكني، لأحافظ على تلك الصورة النادرة للحب، قررت إنهاء حياتي، آملاً أن أحتفظ بصورة حبك العذري.

لا أستطيع مواجهتك بحقيقة جسدي، وأريد أن أكون في عالم الأموات حتى لا أراك وقد شوهت صورتي. لا أريد أن أرى فضيحتي أمام والدك الذي راهن على خطيئتي. ما أريد قوله لك هو أنني أحببتك أكثر من أي شخص آخر في هذا العالم، ولن تحبك فتاة مثلما أحببتك أنا."

(السجن)

رمى محمد الرسالة التي أخرجها من جيب بنطاله عليها
ونظرت نوارس إليها بعيون جاحظة، بينما ازدادت متاهات عقلها حيرةً، وسألته بتوتر: "وماذا حدث بعد ذلك ؟"

انفطر قلبي، ولكن عقلي السليم، رغم السكر، لم يسمح لي أن أسمح لوالدي أن ينتصر على حبيبتي. لم أكن أريده أن يعرف شيئاً عن الرسالة أو عن انتحارها، فأخبرتهم أنني كنت سكراناً، وأنني أجبرتها على بلع الحبوب المنشطة، والجميع صدقوا. ورغم أنني سُجنت كنت أشعر أنني رجل، وحافظت على سمعتها وشرفها. لم أرد أن تموت، وهي غير مرتاحة، يكفي ما عانته، وأنا لم أكن معها. لم أرد لوالدي أن ينتصر عليها، ولم أبال عندما شمت بي وتركني وتبرأ مني. لم أهتم لسمعتي أو مستقبلي، بل لم أهتم لشيء. لأن آخر ما تواصلت به معي كانت تلك الرسالة الملعونة. كتبت لها آلاف الرسائل التي لم تقرأ، أحياناً كنت أقسى عليها في رسائلي، وأنا في السجن."

"هل" سامحتها ؟" .

"لم أسامحها أبداً. ما كان يجدر بها أن تنتحر. ربما لو أخبرتني، لكنت سامحتها، وهي تعرف ذلك، فأنا أحببتها رغم كل شيء. أحد الأسباب التي جعلت محمود يكرهني هو أنني لم أعترف بانتحارها وأصريت على كوني أنا الذي قتلتها. تكررت زيارات محمود وهو يطلب مني الإجابة على تساؤلاته، لكنني كنت أرفض حتى مل مني وتركني أخي الوحيد الذي كنت أشتاق له، أما أمي فكانت

ممنوعة من زيارتي بسبب والدي أصدقائي أخرجوني من السجن بشرط أن أعمل معهم في مجال السرقات والخطف لأنني كنت الأعنف في السجن، وآثار جبيني كانت نتيجة أحد أقوى المشاجرات التي حدثت هناك. بعد وفاتها، أصبحت كالوحش."

صمت لدقائق، وكانت نوارس في عالم آخر، حتى سقطت دمعة منها. سمعته يقول:

إن والدي يعوض خساراته وخسارات عمي بهذا

الحقد الملعون، لأنه لم يفز بالبنت التي أحبها، ولا

يريد لأبنائه أن ينتصروا عليه فيتذكر مأساته. هل

سألتي نفسك لماذا عمك الصغير في الخارج مع

زوجته ؟"

هزت رأسها نفياً.

فأجابها محمد: "لأنه هرب من الناس، فقد قام والدي

بتشويه سمعة زوجته، فلم يستطع عمك العمل في أي

مكان لا هو ولا زوجته فاختار له والدك السفر، وهذا ما

سيختاره لك أيضاً."

(محاولة)

محمد، بنبرة باردة كالصقيع، قال: "إن فكرتِ بالعودة إلى أهلكِ، لن تري قبر محمود حتى في أحلامك."

نوارس، وقد استشاطت غضبًا، سألته بحدة: "لماذا تحاول إجباري على عدم العودة؟"

أجابها بثقة متزايدة: "لأنني أريد الانتصار على والدي."

نوارس، وقد تعالت نبرة الاستفهام في صوتها: "عن أي انتصار تتحدث؟ ومن أنت لتجرؤ على توجيه كلماتك لي؟ أبي لن يجبرني على الرحيل."

ابتسم بمرارة قائلاً: "ليس بعد الآن. سيجبرك لإنقاذ شرفك، وكأنك نسخة أخرى من نورس."

تلبدت ملامح وجهها بالدهشة، فسألته: "من نورس؟"

أجابها وهو يلمس جرحًا قديمًا: "نورس كانت زوجتي، وانتحرت."

صرخت بصدمة: "هل تسخر مني؟ ما الذي تقصده؟"

اقترب منها بنظرة حادة كالسيف وقال: "أقصد أنك قد تحملين ذات الخطأ الذي قاد نورس إلى نهايتها. ربما كنتِ محظوظة، لأن محمود رحل قبل أن يكتشف الخيانة. والدي لم يكن مخطئًا حين اتهم نورس، ولن يكون مخطئًا حين اتهمك. فمحمود، مهما كان يحبك، لن يغفر لك فيما يخص الشرف."

ارتجفت من كلماته وصاحت بأعلى صوتها: "أنا أطهر منك ومن والدك!"

لكنه قابلها بابتسامة ساخرة وقال: "هذا لن يغير شيئًا الآن. لا شرف لفتاة تقضي يومين مع رجل غريب بعيدًا عن أهلها."

دون أن تتمالك نفسها، انفجرت غضبًا وركضت خارج المنزل بسرعة، دون أن تعرف إلى أين تتجه، حتى أنها نسيت أخذ مفاتيح السيارة.

وقفت عند الباب قبل أن تهم بالخروج، وقالت له بنبرة ساخرة: "أنتم عائلة من المجانين، لا أفهم كيف يمكن أن

يكون محمود واحداً منكم"

ضحك بصوت عال، حتى بعد مغادرتها، سمعته يقول: محمود كان مجنوناً أيضًا بحبك، وستعودين إلي مرة أخرى."

همست لنفسها بمرارة: "على جثتي!"

ارتدى قميصه على عجل، وتبعها بخطوات متثاقلة، يمزج بين تذمره من عنادها وضحكاته المتقطعة. أما هي فاستمرت في السير تبكي كالطفلة الضائعة، تائهة بلا وجهة، لا تعرف الطريق ولا كيف تخرج من هذا المكان. سقطت على الأرض من شدة التعب، مستنجدة بأبيها، بينما كان محمد يراقبها من بعيد، يحتضن سيجارته ويستمع إلى صوت نحيبها وحيرتها، مستمتعاً بعجزها. اقترب منها في النهاية وقال ببرود: "سنختار نهاية تناسبنا، لكن بعد أن تلتئم جراحي، فأنا ما زلت أحتاجك."

فكرت في تهديده، وفي لحظة يأس غاضب سحبت

مسدسه ووجهته نحوه، مطالبةً إياه بأن يُخرجها من هذا

المكان. لكنه لم يظهر أي اهتمام، ورد بلامبالاة: "إذا

حاولت قتلي تذكري أنني أملك الفرصة الوحيدة

لخروجك من هنا."

فانفجرت غضبًا، وقالت وهي على وشك الانهيار: "إن لم أقتلك، فسأقتل نفسي!"

وضعت فوهة المسدس على رأسها، فرأت في عينيه أخيرا نظرة خوف حقيقية. أدركت أنها وجدت نقطة ضعفه. اشتعل غضبه في تلك اللحظة، فسحب المسدس منها وصفعها بقوة جعلتها تسقط فاقدة للوعي.

(اتصال)

لن أسمح لها بالانتحار مرة أخرى.

أخفى نوارس في غرفة، غارقاً في أفكاره، وأخرج رسالة قديمة تركتها له زوجته نورس. ظل يقرأ الرسالة مراراً وتكراراً، وكأن الكلمات تتكشف له للمرة الأولى. إلى جانب الرسالة، كانت هناك صورة صغيرة لأخيه. تلك الرسالة والصورة أصبحا رفقاءه في السجن وفي الحياة، يتحدث معهما كأنهما أحياء. في بعض الأحيان كان يخاطب الرسالة، وأحياناً أخرى الصورة، يلوم محمود قائلاً:

"ألم نأتِ إلى هذه الحياة معاً؟ نحن توأمان، لماذا تركتني؟ لماذا لم تكمل زياراتك لي في السجن؟ لماذا تركتني أول مرة، ثم تركت حبيبتك؟ كنت مليئاً بالحنان والشجاعة، ولكنك فشلت في البقاء. فشلت في الاستمرار، تماماً مثل نورس. لقد خسرتم جميعاً أمام والدي، ولكنني لم أخسر... خسرت حياتي ومستقبلي فقط، لكنني لم أنسَ حبيبتك التي جاءني بها القدر. ربما أستطيع أن أصلح ما أفسدتموه أنت ووالدي ونورس، ولكن لإصلاح ذلك، هناك ثمن كبير يجب أن تدفعه. أريد أن أحميها لأجلك، وربما لأجلي أنا. أريد أن أخبرك أنني لن أسمح لها أن تصبح ضحية لحقد والدي أو لمجتمع أعمى. أريد أن أنهي قصتنا بنصر واحد على الأقل."

كانت دموعه تسقط بحنين على صورة أخيه، بينما يستعيد اللحظة التي رأى فيها نوارس لأول مرة وهي ممسكة بذراع محمود بخوف. لقد أحبها من اللحظة الأولى. أخبرها بأنه يريد تحقيق رغبة أخيه، حتى يشعر بانتصاره على والده، لكنها لم تستوعب جنون ما يتحدث عنه. وجدت نفسها ضعيفة، محاصرة بين صراع الأب وابنه، وربما لن ينقذها سوى والد محمود.

لكن كيف؟ محمد، من وجهة نظرها، لم يكن شخصاً طبيعياً. قررت أن تسايره في خطته. كانت تداوي جراح صدره بشكل دوري، ثم قدمت له علاجاً مسكناً للآلام. شك في نواياها، لكنه مع اشتداد آلامه شرب العلاج.

أخذت هاتفه وبدأت تبحث عن رقم والده. لم تفهم لماذا اتخذت هذا القرار، لكنها حين سمعت صوت والده الخشن يجيب:

"ماذا تريد؟"

ترددت قليلاً، ثم قالت بحزم:

"أعرف أن هذا الوضع غريب، لكنني بحاجة لمساعدتك."

بقي والد محمود صامتاً لبرهة، وقفت نوارس تتأمل محمد النائم بعينين مشحونتين بالترقب، والهاتف في يدها. أخذت نفسًا عميقًا وقررت أن تسأل أبا محمود بصوت مرتجف وقلب مضطرب:

"لو جاءت إليك امرأة غريبة تطلب حمايتك لشرفها، هل ستكون لها ناصرًا؟"

ظل أبو محمود صامتًا لبرهة، ثم قال بصوت هادئ وواثق:
"روحي فداء لشرفها."

ترددت قليلًا قبل أن تسأله مجددًا بحذر:
"حتى لو كانت تلك المرأة ابنة ألد أعدائك، وحبيبة ابنك؟"

أجاب بعزيمة لا تتزعزع:
"شرف المرأة التي لجأت إلي بعد الله، أرفع من كل ضغينة وعداوة."

(النهاية)

بعد أن أغلقت نوارس الهاتف، شعرت بشيء غريب يسري في جسدها، خليط من الرعب والعجز. قبضت يدها على الهاتف كأنه ملاذ أخير، ولكنها لم تلبث أن تشعر بتلك القبضة الحديدية في شعرها، وجسدها ينهار تحت وطأة الألم. محمد كان يقف أمامها، عيونه مليئة بالشر الذي لم تكن تعرفه عنه من قبل. كان الشر يتلألأ فيهما كوميض ينذر بالعاصفة.

"لا تتحديني،" قال بصوت مشبع بالغضب، ويداه تمتدان إلى شعرها بعنف. لكنها لم تكن تفكر في خوفها، بل كانت ترى أمامها شيئاً أكبر من هذا التهديد الجسدي، شيئاً أكبر من محمد نفسه. أبو محمود، الشخص الوحيد الذي وثقت به، قد يكون الآن في طريقه إليها، وقد لا يكون. لكن ما كانت متأكدة منه هو أنها لن تستسلم.

في اللحظة ذاتها، كان أبو محمود يتلقى المعلومات الأخيرة من الشرطة. موقع الهاتف قد تم تحديده، وهم في طريقهم الآن. كل دقيقة تمر كانت تعني اقترابهم أكثر، ونوارس لا تعلم أن النجاة قد تكون أقرب مما تظن.

محمد، الذي شعر بأن نوارس تقاومه بكل قوتها، انفجر غضباً وشق ملابسها بعنف مهدداً إياها: "ستندمين! والدي سيغدر بك، ولن تري سوى الدمار إن لم تأتي معي الآن!"

لكن نوارس، رغم الخوف والتعب الذي بدأ ينهكها، لم تبالِ. نظرت إليه بعينين تحديان العالم بأسره، ورغم أنه كاد أن يحطمها، كانت تعرف أنها لن تنكسر.

حين وصل والد محمود برفقة الشرطة، كانت آثار الخوف واضحة على وجهه، لكنه لم يكن يعلم أن محمد قد فر قبل أن يتمكنوا من القبض عليه. التفتت نوارس نحوهم، وعيونها تلمع ببريق من الحزن والانكسار. بصوتٍ ضعيف يختنق بالبكاء، قالت: "لقد خضت معركة قاسية للدفاع عن كرامتي." لم تكمل جملتها، إذ سرعان ما خارت قواها وسقطت على الأرض فاقدة الوعي.

بسرعة، خلع الشيخ عباءته الرجالية، وهو يشعر بنبض الأرض تحت قدميه يتسارع، ولف جسدها المرتعش بعنايته الأبوية. اتصل بوالدها على الفور، ثم حملها برفق إلى سيارته، متوجهاً إلى منزله. هناك، استقبلتها أم محمود بترحابٍ حار، كما لو كانت إحدى بناتها. عيناها كانتا تفيض بالحنان، وهي تمسح على رأس نوارس، محاولةً تهدئة حالتها المقلقة. ولم يتأخر والد محمود في استدعاء الممرضات اللواتي هرعن إلى المكان ليقدمن الرعاية الطبية لها.

وبعد أن استقر حالها قليلاً، اتصل أبو محمود بوالدها عماد. حين وصل الأخير، بدا التعب قد نقش خطوطه على وجهه، وظهره محني من ثقل الهم. ركض نحو ابنته، ضمها إلى صدره وهو يبكي بحرقة ويقبل رأسها. كانت نوارس في عالم آخر، متجمدة في صمتها، حين دخلت الطبيبة لتخبرهم بأنها قد تعرضت لانهيار عصبي نتيجة الضغوط الهائلة التي مرت بها.

مرت أيام قليلة، وفي كل لحظة كان الحزن يزداد عمقاً داخل نفوسهم. ومع اقتراب موعد رحيل عائلة نوارس للسفر، اجتمعوا في وداع مؤلم. قبل مغادرتهم إلى المطار، اقترب أبو محمود من والدها، نظر في عينيه وقال بصوت مليء بالحزن والندم: "ابنتك أشرف الناس."

سافرت نوارس واستقرت في سوريا، وتزوجت من طبيب سوري. وبعد سنوات، سألتها ابنتها بلهجة سورية: "ماما، شو يعني نوارس؟" ابتسمت نوارس وقبلت جبين ابنتها، مجيبة: "النوارس طيور مهاجرة، وأنا أحب أن أكون واحدة منها." ثم ضحكت الفتاة وسألت: "طب ليش ما سميتوني نورس عالاقل؟"

بينما كانت تتذكر قصة نورس زوجة محمد دخل زوجها الأربعيني، الطبيب الذي قضى سنوات عمره في دراسة الطب، متجاهلاً فكرة الزواج حتى رآها. عندما تزوجها، شعر بأنه استكمل جزءاً مفقوداً من حياته. قبل جبينها ثم احتضن ابنته، معبراً عن حبهما. أخذ ابنته إلى غرفة الجلوس، بينما توجهت نوارس إلى المطبخ لتحضير العشاء لعائلتها.

كانت إحدى ليالي دمشق الباردة، وكانت ترتدي معطفاً بنياً، وعندما هبت ريح باردة، انفتحت النوافذ فجأة. ارتعد قلبها وهي تغلقها، لمحت شاباً طويلاً ملثماً خارج النافذة، فسارعت بإغلاقها. بعد قليل، رن جرس الباب، فتحت ببطء لترى صندوقاً صغيراً أمام الباب.

شعرت بالخوف، لكنها جمعت شجاعتها وفتحته. في الداخل، وجدت ورقة مطوية، وعندما فتحتها، قرأت: "ماذا لو اخترت النهاية التي كتبتها لنا؟ لكان هذا البيت بيتي، وطفلتك الجميلة طفلتي. ربما كانت سترث عيوني الزرقاء، وكنتِ الآن تحضرين العشاء لنا. لو اخترتِ النهاية لأصبحت لكِ محمود، ولأصبحتِ أنتِ النسخة الشريفة من نوارس."

تمت